أدب الابتعاث
البحث عن الهوية عبر السّفر (*)

د. أمل التّميمي

أستاذ الأدب والنقد المشارك

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب بجامعة الملك سعود

الملخص:

يتناول هذا البحث **أدب الابتعاث** كما هو ممثل في كتب مذكرات الابتعاث للطلبة المبتعثين للدراسة خارج وطنهم الأصلي، وكان السبب في قصر عينة الدراسة على **أدب الابتعاث**؛ أنه من أكثر النّصوص السّردية التي تتناسب مع البحث عن الهوية عبر السفر. وهناك قائمة طويلة من الكتب التي تبحث عن هوية الطلبة عبر الآخر في السفر. وهذه الكتب غالبا ما تصنف وتدرس بوصفها سيرا ذاتية أو مذكرات شخصية أو أدب رحلات. لذلك سوف ندرس هذه الظاهرة الكتابية الخاصة في فترة زمنية محددة وهي فترة الدراسة للطالب المبتعث، وقد قمنا باستنتاج تعريف مقترح لأدب الابتعاث من خلال النصوص المختارة، وكذلك وضحنا الفروق بين أدب الابتعاث وأدب السفر أو أدب الرحلة، ووقفنا على أهم دوافع كتب الابتعاث، وأبرز موضوعاتها وقضاياها.

الكلمات المفتاحية

أدب الابتعاث – أدب الرحلات – أدب السفر– السيرة الذاتية.

(*) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨٣) العدد (٢) يناير ٢٠٢٣.

Abstract

This research deals with scholarship literature as represented in scholarship memoirs for students on scholarships to study outside their country of origin. The reason was to limit the study sample to scholarship literature; Because it is one of the most narrative texts that fit with the field research on identity through travel, and there is a long list of books looking for identity through the other for students in travel, and they are not studied or classified as a type of biography or travel text, but are often classified as a biography travel literature or personal diaries; Therefore, we will study this special written phenomenon in a period of time, which is the study period for the scholarship student, and we have deduced a proposed definition of scholarship literature through the selected texts, as well as clarifying the differences between scholarship literature and travel literature or travel literature, and we have identified the most important motivations for scholarship books, and its most prominent themes and issues .

المقدمة

نبحث في هذه الدراسة في إشكالية تجنيس أنواع كتب السيرة الذاتية وبعض فروعها، فمنذ نشأة السيرة، لاسيما السيرة الذاتية فقد أصبح هناك شبه اتفاق على أن المذكرات والذكريات واليوميات من فروع السيرة الذاتية، وتعد **الإشكالية** التي تواجه فروع السيرة الذاتية أن هناك فنا قائما بذاته يدعى **فن الرحلة أو أدب الرحلة**، ومع هذا نجد بعض دور النشر أو القراء يقومون بتجنيس كتب الابتعاث على أنها سيرة ذاتية أو تراجم شخصية، أو مذكرات شخصية، وهناك فروق واضحة بين هذه الأشكال وضحتها بعض الدراسات[١]، فربما ينظر لها بعض الدراسين على أنها جزء من السيرة الذاتية، في حين ينظر لها بعضهم الآخر على أن لها استقلاليتها. وأدب الرحلة وجد من يبحث فيه بوصفه مجالا خصبا للدراسة والتحليل والاستنتاج للأنا والآخر، سواء للرحلة في النص العربي أو النص

الأجنبي إذا كانت وجهة الرحلة الأراضي العربية. ونحن في هذا السياق، نجد نصوصا أنتجها العرب وفق ظروف الابتعاث إلى الأراضي الأجنبية، وفي الوقت نفسه يصعب تصنيفها على أنها من الأدب الرحلي لأسباب عديدة. وبعض الأسباب شكلية فنية، وبعضها الآخر له علاقة بالمضمون والمواضيع التي تتطرق إليها هذه النصوص.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على ما أطلقنا عليه بمسمى **(أدب الابتعاث)**، ويمكننا توضيح الفروق بينه وبين أدب الرحلة، فقد لاحظنا وجود سمات مشتركة تجمع بين هذه النصوص وأدب السفر أو أدب الرحلة للسياحة أو العمل، هذا ما جعلنا نحصر تلك النصوص ونحللها بهدف استنتاج السمات المشتركة لهذه النصوص، ونوضح العوامل لتي جعلتنا نطلق عليه **أدب الابتعاث.**

و**تساؤلات الدراسة** تقوم على ما سبق ذكره من افتراض وجود سمات مركبة لأدب الابتعاث التي تجمع بين فن السيرة الذاتية، وفن الرحلة تجعلنا نبحث عن سمات هذا الفن الجديد في حقل السيرة الذاتية وأدب الرحلة. ولعل أوّل سؤال يمكن طرحه هو: هل أدب الابتعاث فرع من فروع السيرة الذاتية مثل اليوميات والمذكرات والليالي؟ أم أنه أدب له سمات السيرة وسمات النّص الرّحلي وظهر في ظروف السّفر لغرض الدراسة فقط؟ ويمكن أن نتساءل أيضا: هل أدب الابتعاث قائم على الصراع في التكيف والاندماج مع الآخر؟ وخصوصا أن الطالب ستكون مدة إقامته أطول عن السائح الذي لا يرتبط بالبلد بإقامة جبرية لأهداف تعليمية.

وطالما أننا معنيون في هذه الدراسة بتجنيس **أدب الابتعاث**، ووصف موضوعاته وأسباب كتابته، فقد اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على جمع الحقائق وتفسيرها لاستخلاص نتائج لها علاقة بنوع هجين يجمع بين

فن السيرة والرحلة. وقد بحثنا عن النوع السّردي الذي يجعلنا نُجيب عن هذا التّساؤل، ونناقش الفرضية التي تتضمن مقولة: (هل أدب الابتعاث هو مقابل لأدب الرحلة) أو هو بحث الأنا عن هويتها مقابل وجود الآخر؟. وقد هدانا التفكير في هذا الموضوع إلى اختيار أدب الابتعاث بوصفه نوعا من أنواع الأدب الذاتي السردي، وبوصفه أوضح الأنواع السردية تعبيرا عن هذه الإشكالية. فأي أشكال السّيرة الذّاتيّة أو التراجم أو اليوميات تساعد في الكشف عن الصعوبات التي يجدها الطالبة في سبيل الاندماج مع الآخر ووصفها؟ وقد وجدنا على سبيل المثال أن كتاب **أنا سنيّة أنت شيعيّ: يوميات طالبة سعودية في جامعة البحرين** للروائية السّعودية سارة مطر يمكن أن يكون نموذجاً صالحاً للتحليل؛ حيث تتحدث فيه الكاتبة عن تجربتها في البحرين إبان دراستها في الجامعة منذ عام 2003 حتى 2007م. ولكننا وجدنا أنفسنا أمام مُعضلة وهي أن العنوان ربما يُثير الشّك والرّيبة، ولكن الحقيقة أن الكتاب بشكل عام، هو "محاولة لرصد المشاعر الجميلة في كلا المذهبين، والتأكيد أن للمذهبين صفات تكمل أحدهما الآخر، ولا غنى عن وجودهما في الوطن"[٢]. فالنموذج غير قابل للتحليل من وجهة نظرنا إذا أردنا فقط البحث عن الصعوبات؛ لأن هذا النموذج يحقق تعايش الشيعة والسنة في بلد خليجي وهو البحرين بسلام وحب، وينقض الفرضية التي تقول أن أدب الابتعاث يجسد الصراعات فقط. وفي معترك التّصفيات نتساءل: أي نوع من أنواع السّرد الذاتي يمكن أن يعكس لنا التّعدد الطّائفي أو الاندماج الواعي؟ للإجابة عن ذلك رأينا أن نتخذ **مذكرات الطلاب السعوديين المبتعثين** مادة سردية لمناقشة قضية التعدد الطائفي والاندماج الواعي. وللبحث عن هذه القضية سنركز على دراسة ثلاثة محاور رئيسة ترتبط بأشكال السيرة الذاتية في الحقب المختلفة ودوافعها ومكانة صاحب السيرة، ودوافع كتابة أدب الابتعاث، وموضوعات أدب الابتعاث، ويمكن مناقشتها على النحو الآتي:

المحور الأول: أشكال السيرة الذاتية في الحقب المختلفة ودوافعها ومكانة صاحب السيرة.

المحور الثاني: دوافع كتابة أدب الابتعاث.

المحور الثالث: موضوعات أدب الابتعاث.

المحور الأول: أشكال السيرة الذاتية في الحقب المختلفة وظهور أدب الابتعاث ومكانة صاحب السيرة

غالبا ما تربط الدراسات النقدية ظهور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث بعصر النهضة والتأثير الغربي عليها، أي مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ففيه بدأت حركات التحرر في الظهور على ساحتنا العربية والإقليمية، وكانت بدايتها حركة رفاعة الطهطاوي في مصر، عبر كتابه **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**[٣]، وهو كتاب يعد بداية جديدة لكتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي، ويكثر الاستشهاد بكتاب الطهطاوي على أنه من كتب السيرة الذاتية دون الإشارة إلى كونه من أدب الرحلة أو كتب الابتعاث.

ويربط النقاد بين تطور السيرة الذاتية والاتصال بالغرب وحركات التحرر، ويرون أن السبب الرئيس في تفاعلها في الوسط العربي هو ازدياد حركات التحرر وخروج الكتاب والأدباء من سباتهم، فاستطاعت السير الذاتية في ذلك الوقت أن تعكس تلك الصورة الحية للصدام بين الشرق والغرب، ويمكن أن تعد بداية لذلك الفن في الأدب العربي الحديث، فقد تأثر بعض كّتاب السير في تلك المرحلة بالآداب الغربية التي أتيحت لهم فرصة الاطلاع عليها والإلمام بها. ولكن على الرغم من إفادتهم من الآداب الغربية، فقد حافظوا على الأسلوب ا لعربي الموروث[٤].

ومع نشاط هؤلاء الكتاب نشطت الثقافة العامة، كما نشطت حركة النشر،

وبذلك حدث تطور كبير في الحركة الأدبية ومنها **فن السيرة**. ومن أشهر المؤلفات في هذا المجال التي ألفت في العصر الحديث على سبيل المثال لا الحصر **الساق على الساق فيما هو الفارياق** لأحمد فارس الشدياق، وهذا الكتاب من الكتب المهمة في تلك الفترة إن لم يكن أهمها بدليل الإحالات الكثيرة إليه من قبل يحيى عبد الدايم، وإحسان عباس(٥)، وكذلك يتم الاستشهاد بكتاب **علم الدين** لعلي باشا مبارك. ومن كتَّاب السيرة في تلك الفترة، الشيخ رشيد رضا، والمويلحي الذي كتب خلاصة أفكاره وآرائه، وملاحظاته التي كانت تدور حول الإصلاح **في** كتابه **حديث عيسى بن هشام**، وحذا حذوه بعد ذلك حافظ إبراهيم في **ليالي سطيح**.

ويظهر تأثير يحيى عبد الدايم كما سنرى على الدراسات التي قامت على تأريخ السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، في تكرار النماذج التي يستشهد بها، وكثرة الاستشهاد بأفكاره، ورأيه الذي يرى فيه أن **فن الترجمة الذاتية** بلغ في الأدب العربي الحديث، قمة تطوره، ويضع الكثيرون من أدباءنا أيديهم على المفهوم الحديث لهذا الفن الأدبي، فيكتبون أعمالا أدبية ربما يعد كل منها ترجمة ذاتية فنية، تماثل في ملامحها معالم هذا الفن في الأدب الغربي(٦).

لقد يرى بعض النقاد أن تطور **فن السيرة الذاتية** كان بتأثير ما قرأ الأدباء والكتاب العرب للغربيين من تراجم كاملة عن حيواتهم، وبخاصة تلك **التراجم الذاتية** التي جاءت مصوغة في قالب روائي، فكان أكثر من كتبها ممن برعوا في الفن الروائي، من أمثال ميخائيل نعيمة في مؤلفيه **مرداد** و**لقاء**، وطه حسين في **الأيام**، و المازني في كتابيه **إبراهيم الكاتب** و**إبراهيم الثاني**، والعقاد في **سارة**، وتوفيق الحكيم في **عودة الروح** و**عصفور من الشرق** و**يوميات نائب في الأرياف** وسهيل إدريس في **الحي اللاتيني** ولويس عوض في **العنقاء**، وصولا إلى كتاب

الرواية المعاصرة من أمثال: الطيب صالح، وحنا مينا، ومحمد شكري، وعبد الله الطوخي، وجمال الغيطاني...إلخ.

وتعددت أشكال كتب السيرة خلال تلك السنوات، وسوف نورد أشكال السيرة التي اتفقوا عليها لنرى أين يمكن تصنيف كتب أدب الابتعاث التي ظهرت حديثا في هذه الأشكال التي جعلوا لها هوية وشكلا فنيا ينضم إلى حزمتها، وتجمع معظم دراسات المختصين بالسيرة الذاتية على أشكال السيرة الذاتية الآتية:

- الشكل **التاريخي** الراصد الذي ينهج فيه المؤلف نهج المؤرخ في تتبع سيرة حياته في شكل تصاعدي للأحداث، وبحيادية تامة، وكأنه يرصد حياة غيره، فنفتقد البعد الداخلي للأحداث، ويروى بأسلوب علمي صارم، فلا مجال للخيال، ولا اللغة الموحية المعبرة عن المعاني وظلال المعاني، بل اللغة الصارمة الدقيقة، ففي هذا الشكل نفتقد التصوير، والحوار الدرامي، واستبطان الذات، وجمال اللغة.
- الشكل **المقالي** وفيه يبني المؤلف سيرته في مجموعة من المقالات وينهج في كل فقرة من الفقرات نهج المقالة التي تقوم على التفسير والتدليل، يقدم للفقرة كتمهيد أحيانًا في كل فقرة، وفي هذه الفقرات تصوغ سيرة صاحبها، وملامح شخصيته الفكرية والوجدانية والروحية.
- الشكل **الروائي** ويقصد به القالب الفني الذي يزاوج فيه الكاتب في عرض أحداث حياته الواقعية والشكل الروائي، الذي يعتمد على السرد والتصوير، وإيجاد الترابط والاتساق بين الأحداث الفنية، واستخدام الخيال استخدامًا محدودًا في تجسيد هذه الأحداث الحقيقة واللجوء إلى الحوار في تجسيم المواقف، والكشف عن أبعاد شخصيته، وتحقيق المتعة الجمالية في عمله الأدبي، واستخدام اللغة ذات الطابع التصويري الإيحائي، الذي يساعد على

تجسيد الأحداث وتصويرها، مع حسن صياغة الأسلوب.

وظهرت كتب تتناول مسألة الابتعاث وما يصاحبها من مشاهدات وملامح من حياة للكاتب، ولقد ظهر العديد من كتب المبتعثين الخليجيين عموما، مثل كتاب الكاتبة القطرية فاطمة أحمد المهندي **أعماق إندونيسيا** (2014م)، والمبتعثين السعوديين على وجه الخصوص الذين سردوا فيها رحلاتهم وتجاربهم مع الآخر الغربي، من أمثال: كتاب **أيام بين شيكاغو وباريس: رحلة بعد أحداث 11 أيلول** (2005م) لمحمد بن حامد الأحمري الذي يروي فيه المؤلف مشاهد ومواقف وأحداثاً وقعت –بعد أحداث الحادي عشر من أيلول– للناس وللثقافة في أمريكا. وكتاب **الثاني عشر من سبتمبر** (2007م) لمحمد بن عبد الله القيسي الشهري، الذي يروي بعضاً من المواقف التي تعرض لها، وبعض الانطباعات والمشاهد والمفارقات في رحلته العلمية للدراسة في مدينة كاربونديل بولاية إلينوي بأمريكا، وكتاب "**على ضفاف بحيرة الهايد بارك**" (2007م) الذي تضمن مذكرات مرام مكاوي المبتعثة في بريطانيا، وكتاب "**باص رقم 9**" (2010م) لياسين الصالحي الحاصل على درجة الماجستير من بريطانيا، وكتاب **مشاهداتي في رحلة الابتعاث: مذكرات بأسلوب الرحلات**، (2013م) لتركي محمد الشهري الذي يتضمن مذكراته في فانكوفر (كندا)، وكتاب مذكرات **مدينة الجسور** (2013م) لمحمد إبراهيم اليحيى الذي يروي فيه بعض المحطات والتجارب الشخصية التي عاشها أثناء فترة الابتعاث إلى كندا، وكتاب **أوراق طالب سعودي في الخارج** (2013م) لمحمد عبد العزيز الداود الذي يحكي فيه رحلة تعلمه اللغة في نيوزيلندا، وكتاب كوثر الخلف **دليل أمهات السعوديات إلى الولايات المتحدة**، ويعد هذا الكتاب الإصدار الثاني بعد كتاب **دليل الأمهات السعوديات في مدينة شيكاغو**. وكذلك كتاب **كما يغني بوب مارلي (دليل التهائين إلى نيويورك)**، (2014م) الذي يحكي فيه أحمد العلي تفاصيل تجربة عاشها في متاهات

نيويورك، وكتاب **حكايات من بلاد الكابتن كوك**، (2014م) لحمود عبد الله الباهلي الذي يحكي فيه رحلة دراسته في أستراليا، وكتاب **جسر من ضوء: بوح وتأملات باحث في دروب قلاسقو** (2014م)، لخالد الراجحي الذي يتحدث فيه عن تجربه ابتعاثه لدراسة الدكتوراه في جامعه (قلاسقو) والصعوبات التي واجهها.

ولعلنا هنا نفرق بين كتب **أدب الابتعاث** التي خصصها الكاتب للكتابة عن فترة دراسته في بلد غريب عن بلده الأم، وغالبا ما يحدد فيها الكاتب المبتعث الفترة الزمنية والمكانية، وكتب **أدب الرحلة** التي يصف فيها الكاتب مشاهدات رحلاته العملية في رحلات سفر سياحية أو عمل أو دراسة مع سياحة، كما نرى على سبيل المثال في كتاب **النَّمسُ في النِّمسا** (2014م) لنبيل فهد المعجل؛ حيث يقدم فيه عصارة تجاربه العملية والشخصية، خلال إقامته في مدينة فيينا عاصمة النمسا بين عامي 2008 و2013م، وقد خصص المعجل مساحة فصل كامل لمنظمتي (أوبك) التي عمل فيها وكذلك (صندوق أوبك(، وكذلك في كتاب **الرحلة الأردنية: خطرات ومشاهدات**، (2014م) لأحمد بن حميد الذي حكى فيه رحلة علمية في بلد عربي له تاريخ وحضارة قديمة. فقد سرد مشاهداته في بلد النشاما الأردن لمدة خمسة أيام، هي مدة أيام المؤتمر[٧]. وكما نرى كذلك في كتاب **دبي المدينة الفاضلة وحكايات أخرى** (2014م) الذي سجل فيه الكاتب هشام عبد العزيز الجطيل يومياته ومشاهداته أثناء رحلاته العائلية والفردية التي قام بها إلى دول تتناثر بين قارات ثلاث، وكذلك في كتاب، **حكايا سعودي في أوربا** (2013م) الذي يصف فيه كاتبه عبد الله الجمعة رحلته في أوروبا متنقلاً بين العديد من الدول الأوروبية، راوياً قصصاً حدثت له، ومشاركا القارئ أدق التفاصيل. وقد حقق هذا الكتاب نسبة مبيعات عالية وأكسب الكاتب شهرة كبيرة، وكانت الطبعة الأولى قد صدرت في (2013)، وفيما يزيد عن السنة بقليل تجاوز الكتاب الطبعة الستين، وبيع منه 14 ألف نسخة في وقت إقامة معرض الرياض

الدولي للكتاب فقط. وقد تحولت فكرة الكتاب إلى برنامج تلفزيوني يحمل عنوان "حكايا سفر" لصالح قناة العرب.

وكذلك تحتاج كتب أدب الابتعاث إلى مزيد من العناية بمسألة التجنيس، فغالبا نجد دور النشر تجنس مثل هذه الكتب بتحت اسم أدب الرحلات، أو أدب الترحال، وكذلك قد يقع القارئ في لبس إذا لم تدرس مسألة تجنيس العناوين بعناية، فعلى سبيل المثال: عنوان كتاب محمد عبد العزيز الداود، **أوراق طالب سعودي في الخارج**، يصنف على غلاف الكتاب بانه (رواية) ثم نجد كل مؤشرات الكتاب الفنية من ضمير المتكلم، إلى الفهرس والموضوعات تدل على أن الكتاب ينتمي إلى أدب الابتعاث، بخلاف الكلمة التجنيسية التي وضعت على الغلاف (رواية)[٨].

أوردنا فيما سبق بعض النماذج من كتب مذكرات الطلبة المبتعثين السعوديين، وهي مؤلفات تعكس انطباعات ذاتية مهمة تتصل بموضوعنا، وقد تكشف لنا مثل هذه النوعية من الكتب الكثير من رد فعل العربي تجاه الحضارات التي يشاهدها في بلد الابتعاث، انصداماً واندماجاً، ولعلنا في هذا البحث نرصد بعض مظاهر الصدمات الحضارية التي تقع للعربي عند اتصاله بالحضارة الغربية، ونقف كذلك على مظاهر التعايش والاندماج.

ومن خلال النظر في التدرج التاريخي لأسباب ظهور أدب الابتعاث وفي شكله الذي يميزه عن فروع السيرة الذاتية الأخرى، لعلنا نستنتج تعريفا لأدب الابتعاث نصوغه من خلال استقراء النماذج السابق ذكرها على النحو التالي: (نص يروي فيه المؤلف مشاهد ومواقف وأحداثا أثناء فترة الابتعاث، ويسجل فيه المؤلف انطباعاته والصعوبات التي واجهها، ويحكي عن تاريخ حضارة بلد الابتعاث بشيء من المفارقات أو بأسلوب المقارنات أحيانا). وبحسب هذا

التعريف المقترح، فإن دافع الكتابة وموضوع الكتابة هو ما يجعل أدب الابتعاث ينتمي إلى فن السيرة الذاتية كون ما يكتبه الكاتب كتابة شخصية، وباعث الكتابة، له دور في تنظيم الذكريات نحو موضوع واحد متعلق بأرض الابتعاث، وتجربة متعلقة بالسفر، يغلب عليها موضوع رئيسي أثناء فترة الابتعاث.

المحور الثاني: دوافع كتابة أدب الابتعاث.

تكشف النصوص المختارة للدراسة عادة عن الدافع الحقيقي لتأليف الكتاب، فمحمد الأحمري يذكر أن هدفه هو الاستكشاف، حيث يقول: "هذا الكتاب هو رحلة قصيرة، تتجلى فيها متعة اكتشاف المكان والزمان والأفكار. فيها مشاهد مما وقع بعد أحداث الحادي عشر من أيلول للناس وللثقافة في أمريكا، أضواء كاشفة تجعلك تفكر فيما تعودت أن تراه عاديًا، وإذا كان عماد الأدب الصورة، فإنك ستشارك في رؤية ومراقبة حتى تلك المواقع التي لم يسبق أن رأيتها من قبل، أو تراها مرة أخرى بغير عينك" (٩).

ويشير حمود الباهلي إلى سبب كتابته الكتاب ليقدم نصيحة للقارئ عن سبب اختياره استراليا كبلد للدراسة، ويقدم كذلك نصائح للقارئ قبل أن يأخذ القرار حول أمور قد تأخذ من عمره سنوات، ويحدد الباهلي، مثل معظم كتاب أدب الابتعاث، فترة الكتاب بقوله إن الكتاب خاص بتدوين مشاهدات ثلاث سنوات(١٠).

ولعل خير وصف لكتاب "جسر من ضوء" للدكتور خالد الراجحي هو أنه "شهادة شخصية معينة" لمرحلة عاشها من يكتب وأراد مشاركة القارئ عيشها؛ فالكاتب هو بطل هذا الكتاب بما هو بوح وتأملات في دروب قلاسقو ودروب الحياة؛ يسرد فيه كاتبه ما اكتسبه وتعلمه في رحلته الدراسية، بأسلوب هو أقرب إلى حوار الذات ومناقشتها ومناجاتها، ومحاولة الوصول معها لنقاط التقاء تساعد على فهم واقعٍ جديد تعيشه وتعيد رسم ملامح الحياة بحب وبأمل وتفاؤل كبير.

ولأن خير الكلام هو ما يصدر عن صاحبه، يُعبر الكاتب عن عمله هذا بالقول: "هذا الكتاب هو جماع ما استفدته وتعلمته من خبرات وتجارب بجامعة (قلاسقو) العريقة بأسكتلندا، وقد تكللت – بحمد الله – بالحصول على شهادة الدكتوراه في تخصص الإدارة الدولية، وكان عنوان الرسالة: "تأثير العلامة التجارية وبلد المنشأ في الرغبة بالشراء في المملكة العربية السعودية". هنا أنثرُ عبير الأحداث، وأدوّن الوجوه التي قابلتها، والصعاب التي واجهتني، وما صُقِلت به نفسي، هنا أنا في مرحلةٍ ما من حياتي، مرحلة غيرتني بلا شك، وكانت خطوة في سبيل خطوات قادمة. كنت قد تحدثت لبعض الأحبة والرفاق عن بعض هذه التجارب والخبرات، فاقترح عليَّ بعضهم ضرورة تدوين هذه التجربة، التي قد تكون مفيدة للبعض، وقد تكون إضافة متواضعة لأدب الرحلات الذي اشتهر به العرب والمسلمون منذ القدم...". ولأن لكل بداية خواتيمها ينهي الكاتب تجربته بالقول: "فهذه قطعة مسطورة من ذاكرة اختبأت في زوايا نفسي.. أحببت أن أضعها بين يدي العابرين من هنا، لعل فيها بعض الذي يستحق ويفيد!". وعليه، قسم الكاتب عمله إلى فترات زمكانية تبدأ مع أول يوم لوصوله إلى قلاسقو ... وحتى لحظة حصوله على الشهادة ورجوعه إلى ربوع الوطن. وتتضمن: "مقدمة" يتبعها العناوين الآتية: البدايات، الدراسة، الشخصيات، الخبرات والتجارب، النهايات، وأخيراً الملاحق وتضم معلومات عن أسكتلندا وجامعة قلاسقو وصور أرشيفية وفوتوغرافية من قلاسقو [١١].

أما المهندي فقد أشارت إلى "أنها قضت عاما كاملا في البحث والتقصي من أجل كتابة هذا المؤلف الذي انتهت منه أواخر عام 2013 فيما خصصت عام 2014 لتدقيق المعلومات الواردة فيه وكذا البحث عن دار نشر وهو ما شكل صعوبة لها خاصة أنها تريد أن يكون الكتاب موجها لكل العرب في أي مكان، ومعبرة عن أمنيتها أن يكون متواجدا في كل مكتبات المطارات العربية"[١٢].

وتتجلى دوافع التأليف عند محمد الأحمري في "متعة اكتشاف المكان والزمان والأفكار. فيها مشاهد مما وقع بعد أحداث الحادي عشر من أيلول للناس وللثقافة في أمريكا، أضواء كاشفة تجعلك تفكر فيما تعودت أن تراه عاديًا، وإذا كان عماد الأدب الصورة، فإنك ستشارك في رؤية ومراقبة حتى تلك المواقع التي لم يسبق أن رأيتها من قبل، أو تراها مرة أخرى بغير عينك، مواقف طريفة ونكت لاذعة، المكتبات، والكتّاب الذين يقرأ لهم الناس، وتوجهات القراءة والتأليف"(١٣).

هناك أكثر من كتاب يركز على سرد الحياة اليومية لأي عربي يعيش في أمريكا بعد فترة 11 سبتمبر، تختلف فيها القصص ولكن الفكرة واحدة في النهاية، ومن ذلك كتاب "الثاني عشر من سبتمبر" لمحمد الشهري(١٤). وبعض الكتاب تكون دوافعه مرتبطة بالرغبة في أن تكون كتبهم أثناء الابتعاث دليلا تعليما للقراء، بل إن بعض هذه الكتب تستعمل كلمة (دليل) في عناوينها مباشرة، حيث تشير المبتعثة كوثر الحجوج إلى دافع تأليفها الكتاب الذي يقع في ثمانين صفحة بوصفه دليلا لتوجيه وإرشاد الطلبة، "أصدرت طالبة سعودية مبتعثة في الولايات المتحدة الأمريكية كتابا إرشاديا للطالبات السعوديات المبتعثات إلى مدينة شيكاغو ثالث أكبر المدن الأمريكية يتضمن برامج ونصائح وتجارب حياتية لكيفية العيش والتعايش والدراسة للطالبات السعوديات المبتعثات إلى أمريكا عموما وإلى شيكاغو بشكل خاص. وقالت الطالبة ومؤلفة الكتاب كوثر الحجوج: إن هذا الكتاب الذي حمل عنوان (دليل الأمهات السعوديات القادمات إلى شيكاغو) قد صدر لتشجيع الطالبات على تحقيق طموحاتهن من خلال تجاوز مختلف العقبات والصعوبات التي مرت بها الكاتبة أثناء بدايات فترة اغترابها للدراسة في الولايات المتحدة وذلك من خلال إجابتها عما يزيد عن ستين سؤالا عاشتها واقعا هناك"(١٥).

وقد يحكي المبتعث كل تفاصيل مشاهداته، فعلى سبيل التمثيل يستعيد

محمد إبراهيم اليحيى في كتاب **مذكرات مدينة الجسور** جملة من الوقائع والذكريات لبعضٍ من المحطات والتجارب الشخصية التي عاشها أثناء – فترة الابتعاث – إلى كندا وبالتحديد في مدينة ساسكاتون "Saskatoon" خلال عام ونصف قضاها في مدينة الجسور، كما يحلو للبعض تسميتها، منها ما تم توثيقه بالصورة، وأخرى تم تدوينها بالقلم، لتشكل في مجموعها مرآة لأفكاره وتحليلاته ورؤاه في المجتمع الجديد. وعن مذكرات مدينة الجسور يخاطب الكاتب القارئ قائلاً: "هو اطلاعك من خلال رصد ونقل المشاهدات التي عشتها في كندا مدعومة برؤى وانطباعات شخصية. قد تكون مثل هذه المشاهدات لم تنقل إليك من قبل أو لم تعشها عن قرب أو ترغب بالعيش إلى بيئة قريبة منها في مستقبلك ولعلها تضيف إلينا جميعاً المعرفة ولو كانت قليلة"(١٦).

ويسجل أحمد العلي تفاصيل عاشها عند ابتعاثه للدراسة في نيويورك، حيث يصف المتاحف والمعارض والحدائق، ويسير مع إدغار آلان بو وبيكاسو ودالي ولوركا، يقفز من التايم سكوير إلى الوول ستريت، ويرى مخطوطات تعود لبيتهوفن وموزارت وأنشتاين وداروين، ويقابل صانعي أفلام (لايف أوف باي) و(فانديتا) (١٧). فكتب الابتعاث تصف تفاصيل الحياة في بلد الابتعاث بكل دقائقها كما يعيشها الطالب المبتعث.

أما كتاب نادين السياط فيحكي تجربة مبتعثة في الولايات المتحدة تدرس في الشرطة وعن العدالة، تبين وحشة الغربة وهموم الطالب المبتعث، بوصفها حياة مليئة بكل أوجه متعددة الصعوبات، والتسلية والجو الجميل والدراسة في المنتزهات والحياة الاجتماعية التي يتشارك فيها الطلبة المبتعثون مثل اجتماع الأسر بأيام العيد، وأيام رمضان ونفحاتها الإيمانية(١٨).

ويمكن أن يجمع الكاتب بين أسلوبين في كتابته عن الابتعاث بأسلوب

وصف المشاهدات، وبأسلوب المقارنة، كما فعل تركي محمد الشهري، إذ جاء في المقدمة: "أصعب ما في المذكرات أنها تكشف حياتك للآخرين كتبت هذه المذكرات ما بين عام 2009 إلى 2012م واثق أن من يقرأ مذكراتي هذه سيستصحب ظروف الغربة وملابساتها وخصوية العيش في الغرب واختلافها عما ألفناه في بلادنا. وتحت عنوان (زميلتي الطالبة السعودية يقول المؤلف: لا غرابة أن يكون في الفصل طالبات من جنسيات شتى ولكن حينما يكون في الفصل طالبة سعودية أجد أن الأمر يختلف قليلاً لأنني وجدت مشاعراً غريبة تختلط بعضها بالإحراج. لماذا هذا الشعور وعدم الارتياح حين أشارك الطالبة السعودية بالفصل؟ هل لأجل أننا اعتدنا في السعودية على الفصل بين الجنسين؟"[١٩].

وكما أن الهوية الفنية على أغلفة الكتب تُظهر تجنيس الكتاب، فكذلك تشترك أغلفة بعض الكتب في إبراز هوية بلد الابتعاث بصور تخص هذا البلد أو ذاك، فبعضها يتصل بأمريكا، وبعضها بأستراليا، وبعضها ببريطانيا، مثل كتاب ياسين حمد الصالحي، **باص رقم 9**، الذي يوضح باص بريطانيا. وهذا الكتاب يضم حكايات ومشاهدات مبتعث سعودي في بريطانيا وهو نتاج تجربة عامين من الدراسة والمعايشة وخلاصة مشاهدات عن المجتمع البريطاني وسلوكيات المبتعث السعودي هناك، إضافة إلى رائحة المدن البريطانية وصخب الشوارع وصراع الثقافات ومذاق الحرية[٢٠].

ومثل تجربة الصالحي، نجد أن تجربة مرام مكاوي **على ضفاف بحيرة الهايدبارك؛ مذكرات طالبة سعودية في بريطانيا**، فغالبا ما تعكس العناوين بلد الابتعاث، وجنسية المبتعث، فهذا الكتاب يتضمن تسجيلاً لأفكار وآراء وانطباعات طالبة سعودية عاشت حقبة من الزمن في بريطانيا للدراسة، وقد توقعت أن تكون هذه الأيام مليئة بالكثير من الأحداث، ومن هنا حرصت على تسجيلها وانتخاب

بعضها للنشر؛ لما لها من دلالات على الشأن العام في بلدها أو العالم أجمع، خاصة وأن هذه الحقبة التاريخية لها أهميتها من أحداث العالم.(٢١)

وقد تكتشف دوافع المبتعث من العنوان، مثلما يكشف عنوان كتاب سارة مطر عن بلد الابتعاث، وجنسية الكاتبة، والطائفية أو موضوع الكتاب ودوافع تأليفه "يوميات **أنا سنيّة أنت شيعيّ: يوميات طالبة سعودية في جامعة البحرين**"(٢٢)، في حين أن عنوان كتاب فاطمة المهندي **أعماق إندونيسيا**، لا يشير إلى أنه تجربة طالبة قررت السفر وخوض تجربة إكمال دراستها العليا في إندونيسيا، ولكن الكاتبة تشير إلى دوافع كثيرة منها تغطية ثقافة البلد التي اكتشفته بعد الدراسة ومعاشرة أهل ذلك البلد، حيث تقول: "وكانت تخطر ببالي تساؤلات عن شعوب شرق آسيا، لماذا هم محبوبون من قبل الجميع؟ ولماذا تعد دول شرق آسيا الملاذ الأمثل للعديد من البشر؟ كنت أظن سابقا أنه بسبب رخص المعيشة والحرية، ولكنني اكتشفت أسبابا أخرى تجذب الناس للقدوم إلى شرق آسيا والمكوث فيها أحيانا حملها الكتاب بأسلوب مشوق"(٢٣) ويشتمل الكتاب على أحد عشر فصلا هي: التجهيز للرحلة، التسوق في جاكرتا، الطعام والشراب، ملامح ثقافية المجتمع الاندونيسي، الحياة العملية، التعليم واللغات المستخدمة، تقاليد الزواج، العلاج، القرى التراثية وأشهر الجزر، بعض الاعتقادات والظواهر الاجتماعية، ومبادئ الفونج شوي.

المحور الثالث: موضوعات أدب الابتعاث.

وبعد أن رصدنا بعض أهم دوافع كتابة أدب الابتعاث، سوف نرصد كذلك أبرز الموضوعات التي تميز أدب الابتعاث عن غيره من فروع السيرة الذاتية والأدب الذاتي. فنجد أن موضوع الطائفية هو الموضوع الرئيس في يوميات الكاتبة السعودية، سارة مطر عن سيرتها الشخصية كطالبة في جامعة البحرين،

تحت العنوان المثير الذي يشرح بكل وضوح وصراحة هذا التباين في التقابلية المذهبية في قلب مجتمع واحد. وقد كان من الشجاعة لدى هذه الكاتبة أن تفصح في هذه اليوميات عن هذا الموضوع وأن يكون عنوان كتابها مطبوعاً بهذه التقابلية التي لم يكن لها قبول قبل ربع قرن من الزمن، فلماذا وصلت مجتمعاتنا إلى هذه المرحلة من الفرز؟[٢٤]. وكتاب سارة مطر لا يتناول الطائفية فحسب، ولكن "أنا سُنية.. وأنت شيعى" كتاب يؤكد على أن الحب يمكنه الجمع بين الطائفتين"[٢٥].

وتشير المهندي في كتابها إلى أنه: "منذ فجر الإنسانية كان السفر وسيلة القدماء للتوبة من فعل الشر، ولتعليم أطفالهم مكارم الأخلاق، بل إن السفر وتعلم لغة أجنبية يحميان الإنسان من الخوف عند الكبر، وبناء على هذه الأفكار الايجابية قررت السفر وخوض تجربة إكمال دراستي العليا في أندونيسيا، إحدى دول جنوب شرق آسيا. وكانت تخطر ببالي تساؤلات عن شعوب شرق آسيا، لماذا هم محبوبون من قبل الجميع؟ ولماذا تعد دول شرق آسيا الملاذ الأمثل للعديد من البشر؟ كنت أظن سابقا أنه بسبب رخص المعيشة والحرية، ولكنني اكتشفت أسبابا أخرى تجذب الناس للقدوم إلى شرق آسيا والمكوث فيها أحيانا حملها الكتاب بأسلوب مشوق. [٢٦]" بل هناك من يرى هذا الكتاب بمثابة "دليل سياحي وإرشادي لكل مسافر إلى هذا البلد الآسيوي، حيث حرصت [المهندي] على أن تتحدث فيه حول تقاليد وعادات هذا البلد والمطبخ الإندونيسي وحتى طريقة الكلام والمفردات والمعتقدات وغير ذلك من الرسائل التي ترغب في نقلها للقراء"[٢٧].

ويحوي كتاب "مناقشات عن المسلمين ومستقبلهم في أمريكا، أخبارا من قصر فرساي، ومعابد الحداثة، وندوة في جامعة السربون، وحوارا مع ملحد في الطائرة، وذكريات عن السكن مع يهود متشددين، وطالبات جامعة أمريكية

يتحجبن. إن هذا النص سفر في الثقافة، غني بالمتعة والإثارة"[٢٨]. فكاتب أدب الابتعاث ينظر إلى مواضيع حياة الابتعاث نظرة شاملة مليئة بالفائدة والمتعة.

وبعض الكتاب يعد موضع الفترة التي يحكيها تجربة تضيف للقارئ وتثري خبراته الحياتية، فكتاب **باص رقم 9** يضم حكايات ومشاهدات مبتعث سعودي في بريطانيا، وهو نتاج تجربة عامين من الدراسة والمعايشة، ومشاهدات عن المجتمع البريطاني وعن سلوكيات المبتعث السعودي، وعن رائحة المدن وصخب الشوارع وصراع الثقافات ومذاق الحرية. وقد جاء في نهاية مقدمة الكتاب ما يلي: "وما بين الصفحة الأولى والأخيرة من هذا الكتاب تجارب سنتين وأفكار عقدين من الزمن جمعتها في أقل من 100 صفحة قد يستعصي بعضها على حبة البنادول بسبب تأثير الثقافة السائدة، فيما قد يفتح بعضها آفاقاً من التفكير والمراجعة والنقد، وهذا ما ابتغيته منذ أول حرف إلكتروني كتبته قبل أن يتحول بقدرة حبر إلى حرف مكتوب ومن عناوين الكتاب: إلى لندن .. لأول مرة، قصتي مع صديقي توم، صدمة حضارية من نوع آخر، مدينة الريف الإنجليزي وقرية الساحل، تفاصيل يومي الإنجليزي، باص رقم 9، جولة في شارع العرب، سعوديات في بريطانيا يشربن القهوة بأمان"[٢٩].

موضوعات أدب الابتعاث

تتضمن كتب أدب الابتعاث مجموعة من الموضوعات التي يمكن إجمالها ومناقشتها في المحاور الأربعة الرئيسة الآتية:

- المحور الأول: ما يثير انتباه المبتعثين وإعجابهم.
- المحور الثاني: ما يحرك الحسرة في داخل المبتعث.
- المحور الثالث: مشكلات الطلبة ومظاهر اندماجهم الواعي.
- المحور الرابع: معوقات الاندماج مع الآخر.

وقد وردت في بحثنا متداخلة نظرا لاتصال بعضها الوثيق ببعض، وفيما يلي عرض موجز لها كما وردت في سرود النصوص المشار إليها آنفا، متضمنا التحليل والشرح والتعليق.

قضايا الاندماج والانكفاء

سردت لنا مذكرات المبتعثين حكاياتهم مع الشعوب والثقافات المختلفة، سواء أكانت ثقافات غربية مثل ثقافة المجتمع الكندي والأمريكي والاسترالي والفرنسي ومعظم بلاد أوربا، أم إسلامية مثل ثقافة المجتمع الإندونيسي، أم عربية مثل ثقافة المجتمع البحريني.

وقد لاحظنا أن أكثر ما يثير إعجاب المبتعثين هو تقيد الغرب بالأنظمة والتزامهم غالباً بها، ونراهم يكررون فكرة التحذير من تجاوز تلك الأنظمة التي يعقبها خسائر عظيمة، كما يشير إلى ذلك حمود عبد الله الباهلي في **حكايات من بلاد الكابتن كوك**، ويثير اهتمام المبتعثين معظم الأماكن الثقافية في مختلف البلدان التي يقيمون فيها أو يزورونها، ويأتي في مقدمتها المسارح، والمتاحف، يقول أحمد العلي: "زرتُ متحف المتروبوليتان أرقى متحف الفنون وآثار الحضارات في العالم –ست مرات– وفي كل مرّة تأخذني الدهشة وتفغر فمي حتى أطقطق عظام فكّي حين يُغلق أبوابه"(٣٠).

وهناك بعض المشاهدات التي وصفت الأماكن الثقافية بدقة متناهية في الغرب، وكانت محل اهتمام الطلبة السعوديين، وجعلتهم يتحسرون على تجاهلها في بلادهم؛ مثل الاهتمام بالفنون، وأكثر ما يدعو إلى التحسر عند بعضهم هو تجاهل المسرح الجامعي، والحركة الطلابية وإدارة المظاهرات المنظمة والتعبير بحرية، وتحت عنوان (مظاهرات 101) وصفت مرام مكاوي شعورها حينما شاهدت أمامها أول مظاهرة في حياتها، وكانت في عام 2002م؛ حيث كانت

الدنيا تغلي وقت اقتراب الحرب على العراق ثم أسهبت في وصف المظاهرة وآثارها وقارنت بينها و بين ما يحدث في بعض دول العالم الثالث"[٣١].

وتظهر المذكرات الاندماج الواعي للمبتعثين ومدى قدرتهم على عقد الصداقات مع الآخر المختلف ديانة ومذهباً، فقد تحدثت مرام مكاوي عن صديقتها فاطمة الشيعية وعن أخلاقها العالية بإسهاب، وكشفت المذكرات عن قدرة الطلبة السعوديين على خلق الحوار والتسامح مع أهل الديانات المختلفة، ولكنها كشفت أيضاً عن وعي المبتعث وحذره في التعامل مع الآخرين، ولكنه رغم عفويته وحرصه على الاندماج مع الآخر فهو حذر وواع على الاندماج، وما بين الانعزال والاندماج فإن المبتعث يرجح الاندماج مع الآخر وكسب وده وثقته.

ورغم تحقق قدر لا بأس به الاندماج الواعي للطلبة المبتعثين مع الآخر إلا أنهم يواجهون كثيرا من المشكلات، وخصوصاً بعد الفترات التي أعقبت أحداثاً سياسية معينة مثل: أحداث 11 من سبتمبر، والحرب الأمريكية على العراق...إلخ، فقد نقلت لنا التجربة الفورية المعيشة للمسلمين في بلدان مختلفة مثل تجربة الداود الذي حكى لنا كيف تؤثر الملامح العربية واللحية في التعامل مع الشخص في بلد مثل نيوزيلندا، حيث يقول في استهلاله تحت عنوان (مطار أوكلاند): "نزلت من الطائرة وفي يدي حقيبتي اليدوية، وورقة لا بد من تعبئتها في الطائرة قبل الوصول، لكي تفتح لك هذه الدولة أبوابها، سرت في المطار أتبع الركاب القادمين لأضمن سرعة الوصول، بدأتُ ألحظ النظرات المتشككة الموجهة إليّ من الركاب وموظفي المطار، لم أكن متعجباً، فعندما تكون ملامحك عربية وملتحياً ومرتدياً معطفاً أسود فالتهمة ثابتة عليك لا محالة، الكل يبتسم وإن كنت أقرأ في العيون غير ذلك، ففيها إحساس بأني مشتبه به وهذا كافٍ...ففي نظرهن أنا مشروع إرهابي جدير بتوقيفه والتحقيق معه، ولكنه للأسف لم يجد دليلاً ليثبت

نظريته"[٣٢].

وقد كشفت بعض الحكايات معوقات الاندماج مع الآخر في بعض الأحيان، ولعل من أهم تلك المعوقات تجاهل الغرب للعربي المسلم واستصغاره، مثل حكاية حمود عبد الله الباهلي التي تعكس تجاهل بعض الاستراليين للسعودية أو جهلهم بها، فالسؤال: لماذا قدمت إلى أستراليا؟ يتكرر باستمرار، وفي حوار مع أسترالي يسأله من أين أتيت؟ فيكون جواب الباهلي من السعودية، فيرد عليه الاسترالي باستعباط كما يقول الباهلي أو باستخفاف، وما هي السعودية؟[٣٣]. وهذا كما نرى سؤال استفزازي من الاسترالي بشأن استصغار بلد له مكانته العالمية بين دول العالم.

وفي الحقيقة، وبعد قراءة هذه المجموعة من الكتب المتعلقة بالسفر والدراسة في الخارج والابتعاث، فإن معظم تصرفات الطلبة تعكس هوية الخليجي القادر على التّكيف وتحدي الصعوبات والاندماج، وتُمثّل حياة الكفاح، وتكشف هويات متعددة للطلبة السعوديين، وهم في معظمها يمثلون نموذج الطالب الذي يؤثر الحوار، والتّسامح والتّعايش والاندماج الواعي، كما تصور المسؤولية التي يتحملها المبتعث على عاتقه أثناء السفر والرحلة في تصحيح الصورة الخاطئة عن العرب والإسلام ورسم صورة جيدة عن الإسلام. وتبرز المذكرات العرب والمسلمين إخوة متعايشين بغض النظر عن موطنهم وأعراقهم ومذاهبهم. وهذه النتيجة تتفق مع الفرضية التي انطلقنا منها وهي قدرة الاندماج الواعي للأنا المسلمة العربية مع الآخر المختلف، وأدب الابتعاث هو الأدب الذي يعكس هذا الاندماج الواعي، ويكشف مدى قدرة الطلبة المبتعثين على القضاء على العنصرية والطائفية، فقد بيّنت كتب أدب الابتعاث أن فوضى الطائفية في الوطن العربي سببها مؤثرات وتدخلات قد تكون خارجية تُؤثر على العلاقات بين أبناء الوطن

الواحد وتذكي الطائفية والعرقية.

يخاطب كاتب مذكرات **مدينة الجسور** القارئ عن موضوع كتابه قائلاً: "هو اطلاعك من خلال رصد ونقل المشاهدات التي عشتها في كندا مدعومة برؤى وانطباعات شخصية. قد تكون مثل هذه المشاهدات لم تنقل إليك من قبل أو لم تعشها عن قرب أو ترغب بالعيش إلى بيئة قريبة منها في مستقبلك ولعلها تضيف إلينا جميعاً المعرفة ولو كانت قليلة"(٣٤). أليست هذه المشاهدات كفيلة بالكشف عن هوية العربي المناضل الذي يسعى إلى التّغير وبيده مشعل العلم؟ الطالب هناك هو نموذج حي لاهتمام حكوماتنا في تكوين هوياتنا بحرية وبنضج، ويعود الطالب لمناقشة البناء والوطن)، وبعد مسيرة من الحركة الطلابية وجدلية الهوية يتحقق حلم التغير وبناء المستقبل مهما وقفت عقبات الاستصغار والتشويه. بل على العكس إن المقولات الترويجية للتشكيك في حكوماتنا وبلادنا في حقيقة الأمر هي مكسب للصادقين من أبناء الوطن؛ إذ جعلتهم أكثر نضجاً لما يدور حولهم.

وأختم هذه الدراسة هذه بالتأكيد على أن كتب **أدب الابتعاث** هي مرآة حقيقية لتاريخ الخليج العربي المعاصر في مجال تقبل تعدد الهويات والإيمان بالاندماج والتعايش السّلمي، ولعل النموذج السردي في أدب الابتعاث للمبتعثين السعوديين قد كان نموذجا جيداً للتدليل على أهمية سرود الرّحلة البعثية في ترسيخ قيم الاندماج والتعايش تحت مظلة وطنية متلاحمة قوية، هي المملكة العربية السعودية، وقد ضاعف الطالب/ة المبتعث من إظهار قوة الانتصار وتحقيق هوية والصورة الواقعية التي تعكس هذه القوة تتمثل في أدب الابتعاث.

الخاتمة

لاحظنا تعدد أشكال السيرة الذاتية العربية في حقب تاريخية مهمة في

العالم، ولم تكن السيرة الذاتية العربية في معزل عن التطور الحضاري الذي اكتسح العالم برمته، ولم يكن الإنسان العربي بمعزل عن ذاك التغير، لقد واكب الإنسان التقدم الحضاري، فتغيرت مفاهيم كثيرة في الأعراف العربية ومن أهمها الاندماج الواعي، والقدرة على رسم هوية حضارية متأصلة في أعرافها وجذورها العربية، فاستطاع العربي أن يرسم خطة واضحة المعالم في تقديم صورة المثقف المتفاعل، فاستطاع الطالب المبتعث أن يكتب عن تجربة حلمه في السفر، السفر من أجل التعلم، فكتب فيها سيرة هذه الرحلة العلمية ومشاهداته ويومياته وأسفاره، ومراسلاته، مثلما فعل المبتعثون إلى بريطانيا وأمريكا وأستراليا وأندنوسيا، لقد تجاوز الطالب المبتعث تقديم ذاته بوصفه طالبا عنيدا يتحدى الكثير من الصعاب فحسب، ولكن قدم نفسه أيضا بعلوم وبلغات متعددة مثل الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية...إلخ، ليقف على مسارح الجامعات العالمية معلنا التفوق.

ولم يكن هذه الانفتاح الثقافي يشمل الرجل العربي فحسب، بل شاركته المرأة العربية كل أوجه التحول والتغير في تقديم الذات، وهي دلالة واضحة على أن المرأة أخذت مكانتها في هذا الحق مثلها مثل الرجل. ومن خلال استقراء نصوص أدب الابتعاث لكلا الجنسين، اقترحنا تعريفا نأمل أن يكون ممثلا للنماذج التي درسناها ولغيرها مما يشبهها، وهو: (نص يروي فيه المؤلف مشاهد ومواقف وأحداث أثناء فترة الابتعاث، ويسجل فيه المؤلف انطباعاته والصعوبات التي واجهها، ويحكي عن تاريخ حضارة بلد الابتعاث بشيء من المفارقات أو أسلوب المقارنات أحيانا).

تكشف النصوص المختارة للدراسة عن الدافع الحقيقي لتأليف الكتاب، فيذكر محمد الأحمري هدفه هو الاستكشاف، ليقدم نصيحة للقارئ عن سبب اختياره استراليا كبلد للدراسة، ويقدم نصائح للقارئ لمرحلة عاشها، وتتجلى دوافع

التأليف كذلك في متعة اكتشاف المكان والزمان والأفكار. فبعض الكتاب يقدم تجربته بوصفها دليلا لتوجيه وإرشاد الطلبة، ولتشجيع الطلبة كذلك على تحقيق طموحاتهم من خلال تجاوز مختلف العقبات والصعوبات التي مر بها الكاتب/ة أثناء بدايات فترة اغترابه، في حين كانت دوافع بعض الكتاب هي رصد ونقل المشاهدات التي عاشوها في بلد الابتعاث، مدعومة برؤى وانطباعات شخصية. قد تكون مثل هذه المشاهدات عاكسة لوحشة الغربة وهموم الطالب المبتعث، بوصفها حياة مليئة بكل أنواع الصعوبات وكل جوانب الحياة الجميلة في آن معا، فالنصوص فرصة لتقديم التسلية والأجواء الجميلة التي كان المبتعثون يقضونها في المنتزهات، وتصوير الحياة الاجتماعية التي يتشارك فيها الطلبة المبتعثون مثل اجتماع الأسر في أيام العيد، وأيام رمضان ونفحاتها الإيمانية.

أما على مستوى أساليب الكتابة، فقد يجمع الكاتب بين أسلوبين في كتابته عن الابتعاث بأسلوب وصف المشاهدات، وبأسلوب المقارنة، وكما أن الهوية الفنية على أغلفة الكتب تظهر تجنيس الكتاب، فكذلك أغلفة بعض الكتب تحمل هوية بلد الابتعاث في بعض الأحيان، وقد تشترك بعض الكتب في إبراز هوية بلد الابتعاث بصور تخص ذلك البلد بعينه.

أما على مستوى الموضوعات، فنجد أن موضوع الدراسة والتحصيل العلمي هو الموضوع الرئيس، ثم تتعدد بعد ذلك المواضيع الفرعية بحسب اهتمام كل كاتب، فمثلا قد تكون الطائفية هي الموضوع الرئيس مثل كتاب سارة مطر رغم أنه لا يتناول فقط الطائفية، ولكن "أنا سُنية.. وأنت شيعي" كتاب يؤكد أن الحب يمكنه الجمع بين الطائفتين.

وأهم قضية من قضايا **أدب الابتعاث، قضايا الاندماج والانكفاء** وتظهر الكتب الاندماج الواعي للمبتعثين ومدى قدرتهم على عقد الصداقات مع الآخر

المختلف ديانة ومذهباً، فقد تحدثت مرام مكاوي عن صديقتها فاطمة الشيعية وعن أخلاقها العالية بإسهاب، وكشفت المذكرات عن قدرة الطلبة السعوديين على خلق الحوار والتسامح مع أهل الديانات المختلفة، ولكنها كشفت أيضاً عن وعي المبتعث وحذره في التعامل مع الآخرين، ولكنه رغم عفويته وحرصه على الاندماج مع الآخر فهو حذر وواع مع الاندماج، وما بين الانعزال والاندماج فإن المبتعث يرجح الاندماج مع الآخر وكسب وده وثقته.

الهوامش:

١. أمل التميمي، **تحولات السيرة الذاتية**، انظر التمهيد، ص 35–84.
٢. صحيفة **الوسط** البحرينية، سياسية يومية مستقلة (العدد: 4011 | السبت 31 أغسطس 2013م الموافق 24 شوال 1434هـ).
٣. انظر يحيى عبد الدايم، **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، ص46.
٤. انظر يحيى عبد الدايم، **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، ص49.
٥. انظر يحيى عبد الدايم، **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، ص 75، إحسان عباس: **فن السيرة**، ص 142.
٦. يحيى عبد الدايم، **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص 79.**
٧. قد يخرج هذا الكتاب من أدب الابتعاث إلى أدب الرحلة؛ لأنه يسجل مشاهدات الكاتب عن بلد عريق الأردن خلال فترة مشاركته في مؤتمر أقامته الجامعة الأردنية، انظر الكتاب، أحمد بن حميد، **الرحلة الأردنية: خطرات ومشاهدات**، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2014م).
٨. محمد عبد العزيز الداود، **أوراق طالب سعودي في الخارج**، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2013م).
٩. محمد بن حامد الأحمري، **أيام بين شيكاغو وباريس: رحلة بعد أحداث 11 أيلول** (السعودية: شركة مكتبة العبيكان، 2005م).
١٠. حمود عبد الله الباهلي، **حكايات من بلاد الكابتن كوك**، (بيروت: دار المناهل للطباعة والنشر، 2014م).
١١. محمد عبد العزيز الداود، **أوراق طالب سعودي في الخارج**، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2013م).
١٢. المهندي توقع «أعماق إندونيسيا» بمعرض الكتاب، العرب، يومية سياسية مستقلة تأسست عام 1973م، (الأحد 18 يناير 2015م).
١٣. محمد بن حامد الأحمري، أيام بين شيكاغو وباريس: رحلة بعد أحداث 11 أيلول (مكتبة العبيكان، 2005م)، صفحة الغلاف الخارجي.

١٤. محمد بن عبد الله القيسي الشهري، الثاني عشر من سبتمبر، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2007م).
١٥. إبراهيم بكري، مبتعثة تصدر كتابا عن (كيف تعيش السعوديات في شيكاغو؟)، الجزيرة، ع 14291، (الاثنين 18 ذو الحجة 1432هـ)، على الرابط: https://www.al-jazirah.com/2011/20111114/fe7.htm
١٦. محمد إبراهيم اليحي، مذكرات مدينة الجسور (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2013م).
١٧. أحمد العلي، كما يغني بوب مارلي (دليل التهائين إلى نيويورك)، (دار طوى للثقافة والنشر والإعلام، 2014م).
١٨. نادين يوسف السياط، محققة سعودية في الشرطة الأمريكية، (دبي، مداد للنشر والتوزيع، 2017م).
١٩. فواز أبو نيان، مشاهداتي في رحلة الابتعاث، الجزيرة، (ع14841، الجمعة 07 رجب 1434هـ)، على الرابط:
https://www.al-jazirah.com/2013/20130517/cu1.htm
٢٠. ياسين حمد الصالحي، باص رقم 9، (القاهرة: دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، 2010م).
٢١. مرام عبد الرحمن مكاوي، على ضفاف بحيرة الهايدبارك؛ مذكرات طالبة سعودية في بريطانيا، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2008م).
٢٢. سارة مطر، يوميات أنا سنيّة أنت شيعيّ: يوميات طالبة سعودية في جامعة البحرين، (دبي: دار مدارك للنشر والتوزيع، 2013م).
٢٣. فاطمة أحمد المهندي، أعماق إندونيسيا، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م).
٢٤. علي سعد الموسى، أنا سنية..وأنت شيعي، الوطن، (السبت 28 سبتمبر 2013م)، على الرابط: https://www.alwatan.com.sa/article/18356
٢٥. آلاء عثمان، "أنا سُنية.. وأنت شيعي" كتاب يؤكد أن الحب يمكنه الجمع بين الطائفتين، اليوم السابع، الإثنين، 26 أغسطس 2013م. على الرابط: https://www.youm7.com/story/2013/8/26/أنا-سُنية-وأنت-شيعي-

كتاب-يؤكد-أن-الحب-يمكنه-الجمع/1221806

٢٦. يحي الستراوي، «أعماق إندونيسيا» للقطرية فاطمة المهندي، أخبار الخليج، الجريدة اليومية الأولى في البحرين، ع ١٣٥٠٤، (السبت ١٤ مارس ٢٠١٥ م، الموافق ٢٣ جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ). على الرابط: http://www.akhbar-alkhaleej.com/13504/article/11574.html

٢٧. المهندي توقع «أعماق إندونيسيا» بمعرض الكتاب، العرب، يومية سياسية مستقلة تأسست عام 1973م، (الأحد 18 يناير 2015م)، على الرابط: https://alarab.qa/article/18/01/2015/441896-المهندي-توقع-أعماق-إندونيسيا-بمعرض-الكتاب

٢٨. محمد بن حامد الأحمري، أيام بين شيكاغو وباريس: رحلة بعد أحداث 11 أيلول (السعودية: شركة مكتبة العبيكان، 2005م)، صفحة الغلاف الخارجي.

٢٩. عبده أحمد الناشري، ياسين يوثق بعثته إلى عاصمة الضباب في كتاب (باص رقم 9)، الرياض، الجمعة 19 ربيع الأول 1431هـ - 5 مارس 2010م - العدد 15229، على الرابط: https://www.alriyadh.com/503849

٣٠. أحمد العلي، كما يغني بوب مارلي (دليل التهائين إلى نيويورك)، (لندن: طوى للثقافة والنشر والإعلام 2014م)، ص139.

٣١. مرام مكاوي، على ضفاف بحيرة الهايد بارك، (الرياض: شركة العبيكان، 2007م).

٣٢. محمد عبد العزيز الداود، أوراق طالب سعودي في الخارج، ط4 (الرياض، شركة العبيكان للأبحاث والنشر، 2009م)، ص13.

٣٣. حمود عبد الله الباهلي، حكايات من بلاد الكابتن كوك، (2014م).

٣٤. خالد الراجحي، جسر من ضوء: بوح وتأملات باحث في دروب قلاسقو (2014م).

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- الأحمري، محمد بن حامد، **أيام بين شيكاغو وباريس: رحلة بعد أحداث 11 أيلول** (السعودية: شركة مكتبة العبيكان، 2005م).
- الباهلي، حمود عبد الله، **حكايات من بلاد الكابتن كوك**، (بيروت: دار المناهل للطباعة والنشر، 2014م).
- الحجوج، كوثر بنت خلف بن حامد، **دليل أمهات السعوديات إلى الولايات المتحدة**، (مكتبة الملك فهد الوطنية، 2011م).
- الراجحي، خالد، **جسر من ضوء: بوح وتأملات باحث في دروب قلاسقو**، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م).
- السياط، نادين يوسف، **محققة سعودية في الشرطة الأمريكية**، (دبي، مداد للنشر والتوزيع، 2017م).
- الشهري، تركي محمد، **مشاهداتي في رحلة الابتعاث: مذكرات بأسلوب الرحلات**، (جدة: مؤسسة الطرق الأربعة، 2013م).
- الشهري، محمد بن عبد الله القيسي، **الثاني عشر من سبتمبر**، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2007م).
- الصالحي، ياسين حمد، **باص رقم 9**، (القاهرة: دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، 2010م).
- العلي، أحمد، **كما يغني بوب مارلي (دليل التهائين إلى نيويورك)**، (السعودية: دار طوى للثقافة والنشر والإعلام، 2014م).
- مطر، سارة، يوميات **أنا سنيّة أنت شيعيّ: يوميات طالبة سعودية في جامعة البحرين**، (دبي: دار مدارك للنشر والتوزيع، 2013م).
- المهندي، فاطمة أحمد، **أعماق إندونيسيا**، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م).
- مكاوي، مرام عبد الرحمن، **على ضفاف بحيرة الهايدبارك؛ مذكرات طالبة سعودية في بريطانيا**، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2008م).

- اليحي، محمد إبراهيم، مذكرات **مدينة الجسور** (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2013م).

ثانيا: المراجع

- أبو نيان، فواز، **مشاهداتي في رحلة الابتعاث**، الجزيرة، (ع14841، الجمعة 07 رجب 1434)، على الرابط: https://www.al-jazirah.com/2013/20130517/cu1.htm
- بكري، إبراهيم، مبتعثة تصدر كتابا عن (كيف تعيش السعوديات في شيكاغو؟)، **الجزيرة**، ع 14291، (الاثنين 18 ذو الحجة 1432هـ)، على الرابط: https://www.al-jazirah.com/2011/20111114/fe7.htm
- بن حميد، أحمد، **الرحلة الأردنية: خطرات ومشاهدات**، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2014م).
- التميمي، أمل، تحولات السيرة الذاتية وممارساتها الجماهيرية بعد ثورات الربيع العربي (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2017م).
- الجطيل، هشام عبد العزيز، **دبي المدينة الفاضلة وحكايات أخرى**، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م).
- الجمعة، عبد الله، **حكايا سعودي في أوربا** (السعودية: دار مدارك للطباعة والنشر، 2013م).
- الحيدري، عبد الله، **السيرة الذاتية** في **الأدب** السعودي، ط2، (الرياض: **دار طويق للنشر والتوزيع**، 1424هـ).
- الداود، محمد عبد العزيز، **أوراق طالب سعودي في الخارج**، (السعودية: مكتبة العبيكان، 2013م).
- الستراوي، يحي، «أعماق إندونيسيا» للقطرية فاطمة المهندي، **أخبار الخليج**، الجريدة اليومية الأولى في البحرين، ع ١٣٥٠٤، (السبت ١٤ مارس ٢٠١٥ م، الموافق ٢٣ جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ). على الرابط: http://www.akhbar-alkhaleej.com/13504/article/11574.html
- صحيفة **الوسط** البحرينية، سياسية يومية مستقلة (العدد: 4011 | السبت 31 أغسطس

2013م الموافق 24 شوال 1434هـ).

- عباس، إحسان، **فن السيرة**، ط2، (بيروت: دار الثقافة، 1956م)، بيروت: دار صادر، عمان: دار الشروق، 1996م).
- عبد الدايم، يحيى، الترجمة الذاتية في الأدب الحديث، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1974م).
- عثمان، آلاء، "أنا سُنية.. وأنت شيعي" كتاب يؤكد أن الحب يمكنه الجمع بين الطائفتين، **اليوم السابع**، الإثنين، 26 أغسطس 2013م. على الرابط: https://www.youm7.com/story/2013/8/26/أنا-سُنية-وأنت-شيعى-كتاب-يؤكد-أن-الحب-يمكنه-الجمع/1221806
- عبد السلام، مصطفى بيومي، على ضفاف بحيرة الهايدبارك مذكرات ضد الذكورة، **علامات في النقد**، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج17، ج65,66 (2008م)، ص 323-338.
- الغامدي، صالح معيض، **كتابة الذات: دراسات في السيرة الذاتية** (الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي، 2012م).
- المهندي توقع «أعماق إندونيسيا» بمعرض الكتاب، العرب، يومية سياسية مستقلة تأسست عام 1973م، (الأحد 18 يناير 2015م)، على الرابط: https://alarab.qa/article/18/01/2015/441896-المهندي-توقع-أعماق-إندونيسيا-بمعرض-الكتاب.
- الموسى، علي سعد، أنا سنية..وأنت شيعي، **الوطن**، (السبت 28 سبتمبر 2013م)، على الرابط: https://www.alwatan.com.sa/article/18356
- المعجل، نبيل فهد، **النَّمسُ في النِّمسا** (دبي، بيروت: دار مدارك للنشر، 2014م).
- الناشري، عبده أحمد، ياسين يوثق بعثته إلى عاصمة الضباب في كتاب (باص رقم 9)، **الرياض**، الجمعة 19 ربيع الأول 1431هـ - 5 مارس 2010م - العدد 15229، على الرابط: https://www.alriyadh.com/503849